

البعد الاجتماعي في البحث اللساني العربي الحديث: نماذج وقضايا

عزيز المحساني

وزارة التربية والتعليم، المغرب

البريد الإلكتروني: azizelmahsani@yahoo.com

معرف (أوركيد): ٩٨٩٢ - ٩٨٤٨ - ٠٠٠٠ - ٠٠٠٩

بحث أصيل الاستلام: ٢٠٢٥-٧-١٣ القبول: ٢٠٢٥-٨-٢٥ النشر: ٢٠٢٥-١٠-٣١

الملخص:

تناولت الدراسة أثر البعد الاجتماعي في البحث اللساني العربي الحديث، منطلقة من فرضية مؤداها أنّ الدراسات اللغوية العربية الحديثة لم تكتفِ بالوصف البنيوي للغة، بل وازنت بين النسق اللغوي والسياق الاجتماعي، مبيّنة أن انفتاح الدرس اللساني العربي على اللسانيات الاجتماعية الغربية لم يكن نتيجة للترجمة، بل خلاصة تأطير وتكوين أكاديمي مباشر لباحثين عرب في جامعات غربية، وعلى يد ثلة من كبار اللسانيين الأوروبيين والأمريكيين، كما توصلت الدراسة إلى وجود وعي مبكر لدى اللسانيين العرب بأهمية البعد الاجتماعي، قبل التعرف المباشر على هذا الحقل، ثم انتقل فيما بعد إلى طور نوعي تمثل في صدور دراسات علمية عميقة، تناولت قضايا لغوية اجتماعية بمنهج لساني حديث، من خلال مسارين بحثيين متميزين: مسار نظري وآخر تطبيقي، إلا أن هذا الأخير كان أكثر إنجازا وفاعلية، ورغم ذلك كله تبقى الحاجة ماسة إلى تأسيس تقليد لساني اجتماعي عربي، ينطلق من المنجز اللغوي العربي، والظواهر اللغوية الاجتماعية، مع انفتاح على الممارسة اللسانية الكونية، ويلبي الحاجة ويصنع التميز، بعيدا عن المحاكاة والتقليد.

الكلمات المفتاحية:

البعد الاجتماعي، اللسانيات العربية، البحث اللساني، اللسانيات الاجتماعية، التأثير الغربي.

The Social Dimension in Modern Arabic Linguistic Research: Models and Issues

Aziz Elmahsani

Ministry of Education, Morocco

E-Mail: azizelmahsani@yahoo.com

Orcid ID: 0009-0000-9848-9892

Research Article Received: 13.07.2025 Accepted: 25.08.2025 Published: 31.10.2025

Abstract:

The study examines the impact of the social dimension in modern Arabic linguistic research, starting from the hypothesis that modern Arabic linguistic studies did not limit themselves to the structural description of language, but rather balanced between the linguistic system and the social context. It clarifies that the openness of Arabic linguistic scholarship to Western sociolinguistics was not merely the result of translation, but the outcome of direct academic training and mentorship of Arab researchers in Western universities, under the guidance of prominent European and American linguists. The study also found evidence of an early awareness among Arab linguists of the importance of the social dimension, even before formally engaging with this field. Later, this awareness evolved into a qualitative phase, reflected in the publication of in-depth scholarly studies that addressed sociolinguistic issues through modern linguistic methodologies. These efforts developed along two distinct research paths: a theoretical path and an applied path, although the latter proved more productive and impactful. Nevertheless, there remains an urgent need to establish an independent Arab sociolinguistic tradition rooted in Arabic linguistic achievements and social linguistic phenomena, while remaining open to global linguistic practices, meeting local needs, and achieving distinction beyond mere imitation and replication.

:Keyword:

Social Dimension, Arabic Linguistics, Linguistic Research, Sociolinguistics, Western Influence.

تقديم:

لقد كان ميلاد اللسانيات الحديثة على يد اللغوي السويسري (فردينان دي سوسير) منعطفًا علميًا لغويًا نوعيًا ومهماً، بطرحه نظرية لغوية جديدة ضُمنت خلاصتها كتابه الذي نشره طلابه من بعده سنة ١٩١٦: «محاضرات في اللسانيات العامة»، عدت نظريته من طرف الباحثين والمهتمين من مختلف المجالات اللغوية وغير اللغوية حدثًا مفصليًا وثوريًا، على نسق ما حدث في مختلف الحقول المعرفية الإنسانية والاجتماعية، وهو ما كان له أثر كبير على باقي الحقول المعرفية قريبة الصلة بالحقول اللساني، فمما لا شك فيه «أن محاضرات دي سوسير كانت تتويجًا لهذا التجديد في آلة العلوم اللسانية والمنطقية، وهو تجديد لم يطل منهج الدراسة فقط (...)، بل طال التجديد السويسري تصورنا القديم الكلاسيكي للغة، واللسان بوجه عام»^(١)، لذا كانت نظريته اللغوية أرضية صلبة لقيام اللسانيات الحديثة بمختلف مدارسها واتجاهاتها، ومساهمة في تطوير وإثراء مجموعة من العلوم الإنسانية والاجتماعية.

إن جوهر نظريته اللسانية كان ملخصًا في مقولته المشهورة التي خُتمت بها محاضراته، «وهي أن موضوع اللسانيات الوحيد والحق، ليس سوى اللسان في ذاته ولذاته»^(٢)، لذا كان عزل النسق اللغوي عن باقي الأنساق غير اللغوية، ومنها النسق الاجتماعي الذي حظي بتركيز خاص في نظريته أمرًا باد للدارس والمهتم، للعلاقة الجدلية الواضحة بينه وبين اللغة، لكن موقف (دي سوسير) لقي نقداً لاذعاً ومن أقرب الناس إليه، والقصد تلميذه (أنطوان ماييه)^(٣)، إلا أن الدراسات اللسانية اللاحقة استدركت كثيراً على اللسانيات البنوية ومؤسسها، فكانت نتيجة هذا التراكم اللغوي النقدي فيما يخص النسق الاجتماعي واللساني، ميلاد فرع جديد من اللسانيات

(١) بتصرف: محاضرات في علم اللسان العام: ٧.

(2) Cours de linguistique générale: 372.

(٣) لمزيد من التفصيل فيما يتعلق بالنظرة الاجتماعية للغة عند (أنطوان ماييه)، والانتقادات التي وجهها لأستاذه (دي سوسير) ينظر في مقالته:

Antoine Meillet, «Comment les mots changent de sens», L'Année sociologique, 1905-1906; rééd. in Linguistique historique et linguistique générale, Paris, Champion, 1921.

Antoine Meille, «Compte rendu du cours de linguistique générale de Ferdinand de Saussure», Bulletin de la Société linguistique de Paris, vol. 20, n° 64.

التطبيقية، وهو اللسانيات الاجتماعية، هذا الميلاد هو نتيجة طبيعية للتطور الذي عرفت له اللسانيات ومناهجها، وتطبيقاتها المختلفة في مجالات علمية ومعرفية متنوعة إبان القرن العشرين، في كل من أوروبا وأمريكا الشمالية، فإلى جانب اللسانيات الاجتماعية نجد: اللسانيات النظرية، والتطبيقية، والنفسية، والأنثروبولوجية، والإثنية، والحاسوبية، والعرفانية، إلخ.

إن البحث اللساني الاجتماعي قد أتى نتيجة فهم عميق للجانب الاجتماعي للغة ووظيفتها، وهذا لم يكن ليتأتى إلا بفهم العلاقات الاجتماعية القائمة داخل أي كيان اجتماعي، وهو نتيجة لاستيعاب أفضل لعلم الاجتماع وآليات اشتغاله، إلا أن جذور نشأتها طالها خلاف ظاهر بين موقفين: موقف يجعلها خلاصة للأبحاث والدراسات التي أنجزها لغويون أوروبيون، فهي بالصورة التي انتهت إليها عند كل من (وليام لا بوف) و(ديل هايمز) و(وليام برايت) ترجع أصولها لكل من (أندري مارتيني) و(أنطوان ماييه) وغيرهما، وكذا للأبحاث اللسانية التي أنجزها اللغويون السوفييت، وفي مقدمتهم (نيكولا مار)، وموقف ثان يرى بأنها أمريكية المولد والمنشأ، ظهرت إبان الستينيات، نتيجة لأسباب اجتماعية وعلمية مرتبطة بالسياق الثقافي والعلمي في الولايات المتحدة الأمريكية^(١).

إلا أن الموقف الأقرب لحقائق البحث اللساني، هو أن اللسانيات إن كانت أمريكية الميلاد باعتبارها نتيجة عملية لما انتهى إليه البحث اللساني والعلمي والثقافي، وخاصة العلوم الاجتماعية، وكذا لطبيعة المجتمع الأمريكي متعدد الأعراق والأجناس واللغات، والذي تبدى فيه الظواهر اللسانية الاجتماعية أكثر من السياق الأوروبي الذي يعد أكثر تجانسا عرقيا ولغويا منه من أمريكا، وفيها تأسست باعتبارها علما قائم الذات، الحد الذي ذهب فيه (وليام لا بوف) إلى القول بأن «اللسانيات الاجتماعية ليست فرعا من فروع اللسانيات، ولا تخصصا متعدد التخصصات، إنها في المقام الأول اللسانيات كل اللسانيات، اللسانيات تقف على قدميها»^(٢)، بعدما كانت تعد عند بعض اللسانين فرعا من فروع اللسانيات العامة، وبالضبط اللسانيات التطبيقية، فإن هذا الفرع من اللسانيات لم ينطلق من فراغ، فمما لا شك فيه أن للسانيات الأوروبية بكل

(١) أبحاث في اللسانيات الاجتماعية: ١٦.

(٢) ينظر: التقديم الذي خص به (بيير إنكريفني) Pierre Encrevé كتاب (وليام لا بوف) «اللسانيات الاجتماعية». «Sociolinguistique»: ٩.

مدارسها أثرا في البحث اللساني الأمريكي، وأن اللسانيين الاجتماعيين الأمريكيين قد اطلعوا على الدراسات اللسانية الأوروبية، التي تؤكد على حتمية العلاقة بين اللساني والاجتماعي، وبين اللغة والمجتمع، وتنتقد موقف (دي سوسير) وتلاميذه الذين جعلوا النسق اللساني مستقلا بذاته عما هو خارجي عنه، وخصوصا النسق الاجتماعي، ولعل صدق هذا الموقف المؤيد والمنتقد للربط بين النسقين، قد وجد له أثرا في البحث اللغوي العربي الحديث.

لم تكن اللسانيات العربية الحديثة في معزل عن هذا الجدل حول طبيعة العلاقة بين اللغة والمجتمع، بل يمكن أن نقول إن النقاش حول طبيعة هذه العلاقة كان متقدما على نظيره الأمريكي، قد يكون ذلك ناجما عن الأثر الذي تركه النقاش الأوربي حول الموضوع إبان فترة العشرينات، وما لحقها في أوروبا، وقد يكون الأمر نتيجة طبيعية للبحث اللغوي العربي القديم الذي يستحضر هذه العلاقة، وقد يكون التعريف المقدم من (ابن جني) للغة إشارة مهمة لهذا الارتباط حينما عرفها: «أنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»^(١)، ففي الدراسات اللغوية الأولى للدرس اللغوي العربي الحديث أثر الموضوع، وتم طرح وجهات نظر مختلفة ينتصر بعضها للربط بين اللغة والمجتمع، وينتصر بعضها الآخر لاستقلالية الدرس اللغوي واللساني الحديث عن كل ما هو خارج اللغة، لكن الدراسات اللغوية اللاحقة كانت أكثر عمقا واطلاعا ونضجا، نظرا لتأثرها بالتطور اللساني الذي عرفه الغرب بكل مدارس واتجاهاته، والذي جعل أحد فروعه ينتصر للبعد الاجتماعي، ويعلن ميلاد لسانيات جديدة ذات بعد لغوي اجتماعي، مستدركا ما نادت به اللسانيات البنيوية، وما استدعو إليه اللسانيات التوليدية لاحقا، فبدأ هذا التأثير يظهر في دراسات لسانية اجتماعية عربية، منهجا وموضوعا، نتجت عنها مجموعة من الأبحاث الرائدة في المجال، وإن كان الغالب عليها الطابع الأكاديمي البحث.

لذا، سيسعى هذا البحث لتحديد البعد الاجتماعي في البحث اللساني العربي الحديث، منطلقا من فرضية مؤداها: أن الأثر اللساني الغربي على البحث اللساني العربي لا يمكنه أن يقف عند الدراسات الوصفية المكتفية بدراسة النسق اللغوي بعيدا عما يحيط به من أنساق، ومن أبرزها النسق الاجتماعي، كما أن الدرس اللغوي العربي الحديث في أولياته، لم تغب عنه مطلقا جدلية العلاقة بين اللغوي والاجتماعي، وإن

(١) الخصائص: ٣٣/١.

كان لم يتناولها بالمستوى الذي تناولها به لاحقاً مع اللسانيات الاجتماعية.

أما الإشكالية الرئيسية التي تنطلق منها هذه الدراسة العلمية فتقوم على أن النظرية اللسانية العربية الحديثة تأثرت بالدرس اللساني الغربي، منهجاً وتطبيقاً، والأثر اللساني الاجتماعي منها باد في الدراسات اللسانية العربية الحديثة، وعليه يمكننا أن نفرع عنها السؤالين الآتيين:

- ما مكانة النسق الاجتماعي من النظرية اللسانية العربية الحديثة؟

- ما أبرز النماذج والقضايا اللسانية الاجتماعية التي تناولها الدرس اللغوي العربي الحديث؟

لذا ستكون محاور الدراسة إجابة عن السؤالين السابقين، وتتأطر في نطاقهما.

١ - النسق الاجتماعي والنظرية اللسانية العربية الحديثة

إن ميلاد البحث اللساني العربي الحديث جاء نتيجة حتمية للاحتكاك الثقافي والمعرفي مع الغرب، وقد تمثل ذلك من خلال البعثات الطلابية التي تم إرسالها مع مطلع النهضة العربية في الشرق العربي، وبعدها في باقي البلاد العربية، كما كان للترجمة فعل كبير في نقل الإنتاج العلمي واللغوي الغربي، والتعرف عليه بكل اتجاهات ومدارسه، وهذا ما سمح للغويين العرب المحدثين بالاشتغال على التراث اللغوي العربي قراءة ونقداً، بغية وضع نظرية لسانية عربية؛ تمكن من تيسير اللغة العربية، وتبسيط قواعدها، وإغناء مباحثها، ومناهجها، وقد أدى الشراء اللغوي الناتج عن الاتصال بالنظريات اللسانية الغربية إلى تبلور اتجاهات بحثية لغوية تتناغم مع الاتجاهات اللسانية الغربية، ومن أبرزها:

- الاتجاه التوليدي: يعد ثمرة للبحث اللساني التوليدي التحويلي الذي أسسه اللساني الأمريكي (نوم تشومسكي)، ومن اللغويين العرب الذين اختاروا هذا المنهج في اشتغالهم: (ميشال زكريا)، و(مازن الوعر)، ويعد اللساني المغربي (عبد القادر الفاسي الفهري) من أهم رواده.

- الاتجاه الوظيفي: يقوم على النظرية الوظيفية لـ (أندرية مارتينييه)، ومن أبرز

أعلام هذا الاتجاه (أحمد المتوكل)، الذي أثرى الحقل اللغوي بدراسات وأبحاث قيمة، بسطت الأطر النظرية لهذا الاتجاه، وأغنتها بدراسات تطبيقية على اللسان العربي، وهذا ما دفع أحد الباحثين للقول: «وقد لا نجانب الصواب إذا قلنا بأن أبرز كتابة في الاتجاه الوظيفي بمعناه اللساني المعاصر أي النحو الوظيفي التداولي تجسدها مؤلفات أحمد المتوكل»^(١).

- الاتجاه البنيوي الوصفي: هذا الاتجاه يقوم على النظرية اللسانية البنائية، التي يرفض أصحابها الأحكام المعيارية، وتعد الأبحاث التي أنجزها (تمام حسان)، و(إبراهيم أنيس)، و(عبد الرحمن أيوب) رائدة في هذا الباب.

- الاتجاه التأصيلي: يسعى إلى تأصيل نظري للنحو العربي من خلال مقابله بالنظريات اللغوية الحديثة، خاصة النظرية التوليدية التي تتناول التركيب بشكل أعمق وأشمل، ومن أعلام هذا الاتجاه (عبد الرحمن صالح)، و(عبد القادر المهيري)، و(ميشال زكرياء).

- الاتجاه التوليقي: وهو اتجاه يتأسس على صياغة نظرية لغوية من خلال النظر في نحو اللغات التوليفية، ويمثل هذا الاتجاه اللساني المغربي (محمد الأوراعي) من خلال نظريته اللغوية التي أطلق عليها النظرية النسبية^(٢)، بحثا عن تفرد وأصالة لسانية ضمن المدرسة اللسانية الحديثة.

إن طرح إشكالية العلاقة بين اللغوي والاجتماعي في البحث اللغوي العربي الحديث لم ينطلق من فراغ، بل جاء تأسيسا على المنجز اللساني والمعرفي الذي وصل إليه الغرب قبل وبعد (دي سوسير)، ولقد كان للغويين العرب الذين تلقوا تعليمهم في جامعات أوروبية خصوصا الفرنسية والإنجليزية سبق لإثارة الموضوع، من خلال دراساتهم القيمة التي تؤثر على وعي مبكر بالقضية، واستيعابا جيد لها، لذا يعد ما

(١) اللسانيات العربية الحديثة: ٢٥٤.

(٢) ينظر: في هذا الصدد ما كتبه (مصطفى غلفان) في تأريخه للسانيات العربية، وأهم اتجاهاتها، سواء فيما عرف لديه بلسانيات التراث أو لسانيات العربية ولاسيما في دراسته:

- اللسانيات العربية الحديثة: دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية.

- اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة: حفريات النشأة والتكوين.

وما كتبه (حافظ إسماعيلي علوي) في دراسته:

- اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة: دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته.

وكذا دراسته المشتركة مع (امحمد الملاح) المعنونة بـ:

- قضايا إبستمولوجية في اللسانيات.

كتبه (علي عبد الواحد وافي) في كتابه «اللغة والمجتمع» الذي كانت طبعته الأولى سنة ١٩٤٥، و(محمود السعران) «اللغة والمجتمع: رأي ومنهج» الذي طبع أول مرة سنة ١٩٦٣، من الدراسات الأولى في الباب، كما كان للترجمة دورها من خلال نقل دراسات لغوية أجنبية تناولت الموضوع، يذكر في الباب الترجمتان القيمتان لكل من (عبد الرحمن محمد أيوب) لكتاب (^& أوتو) «اللغة بين الفرد والمجتمع» الذي طبع عام ١٩٥٤، وترجمة (تمام حسان) لكتاب (م. م. لويس) «اللغة في المجتمع» الذي صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٥٨، ينضاف إلى ذلك ترجمة (محمود عياد) لكتاب «علم اللغة الاجتماعي» للساني الإنجليزي (د. هدسون)، الذي صدر عن جامعة كمبريدج سنة ١٩٨٠، ليكون مدخلا إلى علم اللغة الاجتماعي لطلابها، وإن جاءت ترجمته متأخرة وطبعت أواخر الثمانينيات، فيما كانت طبعته الثانية سنة ١٩٩٠.

هذه الدراسات الأولى سواء تأليفاً أو ترجمة تدفع الباحث المهتم إلى التساؤل عن موقع هذه الدراسات والترجمات من الدرس اللساني الاجتماعي الغربي: هل هي تنتمي إلى ما يسمى بالمرحلة الثانية من تطور الدرس اللغوي الاجتماعي في أمريكا، الذي أطلق عليه «اللسانيات الاجتماعية»، أم إلى الدراسات اللغوية ذات الطابع الاجتماعي في المدارس اللسانية الأوروبية؛ الفرنسية، والإنجليزية، والسوفياتية؟ ألا يمكن الحديث عن لسانيات اجتماعية عربية مستقلة تعكس خصوصية التفكير اللغوي العربي؟ هذه الأسئلة وغيرها تطرح نفسها بقوة وإلحاح، بغية تشكيل تصور عام وتفصيلي عن البحث اللساني الاجتماعي في الدرس اللغوي العربي.

من الذين أثاروا هذه الأسئلة والإشكالات بحثاً عن أجوبة لها، الباحث اللساني (عبد المنعم جدامي)^(١)، فقد حاول الباحث تقديم صورة مكتملة الأطراف لجذور ونشأة البحث اللساني العربي، كما حاول تقديم إجابة تحسم في مرحلة مهمة من تاريخ الدرس اللساني العربي الحديث، في تناوله لجدلوية العلاقة بين اللغة والمجتمع، ومنها اللسانيات وعلم الاجتماع والعلوم المتصلة به، مؤسساً ذلك على النظر في المواقف المتعارضة فيما يخص أصل نشأة اللسانيات الاجتماعية وجذورها في الغرب، بين القول إن نشأتها أوروبية، أو أمريكية، أو الموقف التوفيقى الثالث الذي يرى بأن جذورها في الدرس اللغوي الأوروبي وثمارها في أمريكا.

(١) أبحاث في اللسانيات الاجتماعية: ٦٩-٧٦.

لقد انتهى وفق ما توصل إليه من نتائج فيما يتعلق بهذا الإشكال إلى أن يقسم مسار الفكر اللساني الاجتماعي؛ الذي نشأ في العالم العربي إلى ثلاثة مراحل أساسية: المرحلة الأولى، عينها بالدراسة الاجتماعية القيمة التي أنجزها (عبد الواحد وافي) حول علاقة اللغة بالمجتمع في كتابه: «اللغة والمجتمع»، متأثراً في ذلك بدراسته في السربون، فهي تعد من منظور الباحث شاهداً على عناية اللغويين الفرنسيين بعلم الاجتماع، واهتمام الاجتماعيين الفرنسيين باللغة، لذا يعد الباحث كتاب (عبد الواحد وافي) أول كتاب عربي في الموضوع، ويمثل المرحلة الأولى من مراحل تطور الفكر اللغوي الاجتماعي عند العرب في العصر الحديث، كما هو ماثل في موضوعات الكتاب ومفاهيمه ومراجعته، التي تمثل الرؤية اللغوية الاجتماعية كما كانت عليه إبان العقود الأربعة الأولى من القرن العشرين.

المرحلة الثانية أرخ لها الباحث بدراسة (محمود السعران) «اللغة والمجتمع: رأي، ومنهج» الذي نشرت طبعته الأولى سنة ١٩٥٨، وقد عدّها صورة صادقة للتفكير الاجتماعي في المدرسة اللغوية الإنجليزية، وتعكس وعياً لغوياً متقدماً بالقضايا والمفاهيم المتعلقة باللغة والمجتمع، كما أن لائحة المصادر والمراجع المعتمدة فيها متنوعة، وأكثرها بالإنجليزية من تلك التي بالفرنسية، وأغلبها مراجع لغوية لأعلام كبار في اللغة وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا، وقد اعتبرها الباحث مرحلة متطورة عن سابقتها التي مثلها (عبد الواحد وافي) من حيث العمق والاستيعاب، والأمثلة التطبيقية والتحليلية.

المرحلة الثالثة مثل لها الباحث بظهور اللسانيات الاجتماعية باعتبارها تخصصاً مستقلاً بذاته، وله مناهجه وأدواته، ومفاهيمه الخاصة به، المستقلة عن كل من اللسانيات البنوية والتحويلية التوليدية، لذا تعد هذه المرحلة من منظور الباحث مستقلة بنفسها عن المرحلتين السابقتين، وما كتب فيهما من دراسات لغوية ذات نفس اجتماعي، ودليل ذلك من منظور الباحث عدم استعمال مصطلح اللسانيات الاجتماعية في المرحلتين السابقتين من طرف (وافي) و(السعران)، ويميل إلى أن أول استعمال للمصطلح كان مع ترجمة (محمود عياد) لكتاب (د. هيدسون)، وتمثل هذه المرحلة مجموعة من الدراسات والأبحاث التي كتبها باحثون عرب، وهي تعكس عمقا في التناول، وتطوراً في التفكير اللغوي الاجتماعي لدى الباحثين العرب؛ وهذه نتيجة طبيعية يراها الباحث لتطور هذا المجال في أمريكا وباقي العالم المتقدم.

إن ما قدمه الباحث (عبد المنعم جدامي) من تقسيم زمني لتطور الدرس اللغوي الاجتماعي العربي يراعي السياق والبيئات البحثية اللغوية في أوروبا من جهة، والصورة المكتملة التي انتهى إليها هذا الفرع من اللسانيات التطبيقية، يفقد قوته ما دام هو نفسه يتبنى رؤية توفيقية بين أصل نشأة اللسانيات الاجتماعية وجذورها في أوروبا، واكتمالها في أمريكا، ولأن المرحلتين الأولى والثانية ليستا من حيث الأهمية والنضج اللذين يجعلاننا نجعلهما معا مرحلتين مستقلتين عن بعضهما بعضا، وتمثلان مدرستين لسانيتين ذاع صيت لسانيهما، وكانتا قبلتين مفضلتين للطلاب العرب الساعين للدراسات اللغوية أو الاجتماعية، والحقيقية أن التقسيم الطبيعي الذي يراعي مسار تطور اللسانيات الاجتماعية باعتباره مجالا بحثيا له حضوره القوي في حقل الدراسات اللغوية الحديثة، ودور اللسانيين الأمريكيين، وعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيا والتخصصات القريبة منها، ومسار تطور البحث اللغوي الاجتماعي العربي نوعا وكما، من حيث المنجز أو المترجم من النصوص التي لها أثر كبير في انتشار هذا العلم، والإقبال عليه من طرف المتخصصين والطلاب والمهتمين بالدراسات اللغوية والاجتماعية، هو الذي يجعل المرحلتين الأولى والثانية مرحلة واحدة، وعليه يمكننا أن نقسم مسار تطور البحث اللغوي الاجتماعي العربي إلى مرحلتين ليس إلا.

المرحلة الأولى، يمكننا أن نحدد لها سمتين رئيسيتين: الأولى أن الدراسات المنجزة كانت نتيجة للتأثر بالبحث اللساني الاجتماعي على الصورة الأولية التي كانت عليها قبل اكتمالها في الولايات المتحدة الأمريكية، والاصطلاح على تسميتها بـ«اللسانيات الاجتماعية» في مؤتمر ١٩٦٠، الثانية أن أغلب هذه الدراسات كانت بحوثا اجتماعية في الظاهرة اللغوية، أي في العلاقة الرابطة بين اللغة والمجتمع، لذلك جاءت أغلب عناوينها تعكس هذا الأمر، وأن الدارسين العرب هم بين باحث اجتماعي يدرس الظاهرة اللغوية من هذا المنظور، ولغوي يدرس اللغة مستعينا بمناهج وأدوات من حقول علم الاجتماع وما يتصل بها، لذا نجد هناك بسطا لقضايا اجتماعية، واستعمالا لمفاهيم مستمدة من علم الاجتماع أو الأنثروبولوجيا وحقل اللغويات، فمثلا إذا أخذنا كتاب (عبد الواحد وافي) «اللغة والمجتمع»، نجده يصرح في مقدمة مؤلفه بمنهجه وموضوعه، وبمنظور اجتماعي لمسألة اللغة باعتبارها ظاهرة من الظواهر الاجتماعية التي تخضع للخواص المميزة للظواهر التي يدرسها علم الاجتماع، وهي خواص

تتوفر في اللغة على أكمل ما يكون^(١).

ومنه، فإنه ووفق هذا التحديد يقدم تعريفا لها، ويصرح بمنهج دراستها قائلا: «فاللغة إذن ظاهرة اجتماعية، وهي بوصفها هذا تؤلف موضوعا من موضوعات علم الاجتماع، وسندرسها في هذا الكتاب على منهج هذا العلم ومن وجهة نظره وأغراضه»^(٢)، كما أننا نجده على إمام بموقف (دي سوسير) ونظرتة للعلاقة بين اللغة والمجتمع، والتأثيرات غير الاجتماعية فيها، وهو ما عبر عنه الباحث بقوله: «ومن ثم يتبين لنا فساد ما ذهب إليه بعض المتطرفين من علماء الاجتماع، كالعلامة دو سوسور De Saussure، ومن هنا نحوه، إذ يقررون أن جميع المؤثرات في حياة اللغة ترجع إلى أمور اجتماعية»^(٣)، وهو إقرار من (عبد الواحد وافي) للتأثيرات غير الاجتماعية على اللغة المتصلة بالبيئة الجغرافية، أو وظائف الأعضاء، أو باختلاف الشعوب في الخواص الجسمانية الوراثية، أو بعدد السكان وطبيعة العلاقة التي تربطهم، أو بنية اللغة نفسها من حيث معجمها وتركيبها وأصواتها.

أما إذا ما نظرنا إلى كتاب (محمود السعران) فنجد أنه أكثر نضجا، وأعمق فهما، وأشد استيعابا لطبيعة العلاقة بين اللغة والمجتمع وإشكالاتها؛ أولا للمنظور السوسيوي للغة، ولمن عاصره وجاء بعده من اللغويين خصوصا الإنجليز، ولطبيعة وظيفة اللغة في المجتمع وطريقة دراستها، أي بجعل اللغة منطلقا لدراسة الظواهر الأخرى ومنها الظاهرة الاجتماعية، باعتبار اللغة علما مستقلا بذاته، وليس تابعا لغيره من المجالات الأخرى، أي ألا ينظر للغة من خلال مناهج علوم أخرى، أو أن ينظر فيها على أنها فرع من علم آخر، حيث المبدأ الذي يجب مراعاته في دراسة اللغة أنها علم مستقل بذاته، وأن موضوعه الوحيد هو اللغة معتبرة في ذاتها ولذاتها، كما يذهب لذلك (دي سوسير)، وهو ما يتطلب من منظور الباحث أن تكون مناهج علم اللغة ووسائلها وأسسها الفلسفية مستمدة من طبيعة الموضوع، ومتوافقة معه، مع إمكانية الاستعانة بالعلوم والمعارف الأخرى مثلا علم الاجتماع، مع الحفاظ للغة على استقلالها، ودراستها لذاتها^(٤)، وهذا ما يجعل من منظور الباحث دراسة الوظيفة الاجتماعية للغة

(١) اللغة والمجتمع: ٥-٦.

(٢) اللغة والمجتمع: ٦.

(٣) اللغة والمجتمع: ١٤٢.

(٤) اللغة والمجتمع: رأي ومنهج: ١٠-١١.

بابا من أبواب كثيرة للدراسات اللغوية الحديثة.

أما المرحلة الثانية، فهي بلا شك المرحلة التي تم تلقي فيها اللسانيات الاجتماعية في صورتها المكتملة كما انتهت إلينا في الدراسات اللسانية الاجتماعية عند كبار روادها من أمثال لابوف، وبرايث، وهايمز، وفيشمان، وجمبرز، إلخ، ويمثل كتاب «الأيام الأولى للسانيات الاجتماعية The Early Days of Sociolinguistics» أفكار وآراء ثلة من اللسانيين الاجتماعيين الأمريكيين، التي تؤثر بما لا يدع مجالا للشك أن هذا المجال من اللسانيات أمريكي المولد، وأن الأثر الأوربي في نشأته لا يكاد يذكر بسبب عدم التفات كثير من هؤلاء إلى تلك الجهود الأوربية، وعدم إيرادهم إشارات كافية للقول بهذا الأثر، وكانت هناك رؤية محايدة تنفي ذلك وتؤكد بهذا التأثير الأوربي السابق في اللسانيات الاجتماعية الأمريكية، وأن اللسانيين الاجتماعيين الأمريكيين هم الذي أسسوا هذا الفرع من اللسانيات وأعطوه اكتماله وبروزه^(١).

أما أول دراسة عربية يمكن القول أنها استعملت مصطلح «اللسانيات الاجتماعية» بحسب ما وصل إليه بحثنا، هي «الإثنوميثودولوجيا - ملاحظات حول التحليل الاجتماعي للغة» لـ (محمد حافظ دياب)، وهي مقالة نشرها الباحث في مجلة فصول المجلد الرابع العدد الثالث سنة ١٩٨٤، كما استعمله فيما بعد (هادي نهر) في كتابه «علم اللغة الاجتماعي عند العرب»، والذي صدرت طبعته الأولى عام ١٩٨٨، وهذا ما يجعل ما ذهب إليه الباحث (عبد المنعم الجذامي) من أن أول استعمال للمصطلح كان مع الترجمة التي أنجزها (محمود عياد) لكتاب «علم اللغة الاجتماعي» لـ (هدسون)، أمرا لا يمكن الركون إليه، أولا لأن الطبعة الثانية لترجمة (محمود عياد) كانت سنة ١٩٩٠ مع عدم معرفتنا بتاريخ الطبعة الأولى على وجه الدقة فإن (محمد حافظ دياب) نشر مقالته سنة ١٩٨٤، كما نشر (هادي نهر) كتابه سنة ١٩٨٨، مما يجعل هناك تزامنا بينهما، وهو ما يؤشر إلى أن المصطلح قد وجد طريقه إلى الدراسات اللغوية العربية مبكرا، وقبل ترجمة (محمود عياد)، السبب الثاني أن مقالة (محمد حافظ دياب) تؤثر على انفتاح الثقافة العربية بكل فروعها على الثقافة الأمريكية، وإطلاع كاف عليها، مما قد يدل على استيعاب معرفي، وليس نقلا لغويا من خلال آلية الترجمة، التي

(١) ينظر: في هذا السياق ما أورده عبد المنعم الجذامي في دراسته: أبحاث في اللسانيات الاجتماعية: ٣٣ و ٤٣.

في كثير من الأحيان لا تتطلب الإلمام بالحقل المعرفي الذي يخوض المترجم فيه فعل الترجمة، ومع الأسف هذا حال كثير مما ترجم من أعمال أدبية ونقدية ومعرفية؛ مما أربك المشهد الثقافي والمعرفي العربي، خصوصا في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية.

ظهر هذا الاستيعاب المعرفي لـ (محمد حافظ دياب) للثقافة الأمريكية، خاصة اللسانية من خلال إيراده لتحديد (ديل هايمز) لعمل اللسانيات الاجتماعية بأنه «وصف لنسق لغة اجتماعي، وكيف أن هذا يختلف عن عمل النحو في اللغة، بالإشارة إلى الحدود اللهجية وعلاقاتها التاريخية، ودراسة قواعد البلاغة وأسلوب الأدب، وتحليل وجوه اختلاف الكلام المميزة بين مختلف الجماعات الإثنية والطبقات الاجتماعية الموجودة في منطقة معينة، وأي من شواهد السلوك اللغوي التي يمكن ملاحظتها»^(١)، وإيراده لأسماء رواد اللسانيات الاجتماعية ممن لهم دراسات في هذا الصدد مثل: (ديل هايمز)، و(وليام لابوف).

أما فيما يتعلق بـ(هادي نهر)، فالمؤشرات تؤكد بما لا يجعل مجالا للشك أن اطلاعه على المفهوم واستخدامه كان من خلال باحثين عرب لهم معرفة باللسانيات الاجتماعية في الولايات المتحدة، وقد يكون (حافظ دياب) أحدهم، إن لم نزع أنه كان المصدر الذي اعتمده (هادي نهر)، ودليل ذلك أن مقالة (حافظ دياب) موجودة في لائحة مصادر ومراجع كتابه، وضمن إحالات هامش الفصل الأول: علم اللغة الاجتماعي: ماهيته، وموضوعه^(٢)، إلا أن الملفت للنظر والمثير للتساؤل أن الباحث حينما تطرق للمصطلح في مقدمته، لم يحل على أي مصدر أو مرجع لنقله، بعكس (محمد حافظ دياب) الذي أحال على مصدره، وبالضبط إلى الدراسة المنشورة لـ(ديل هايمز) المعنونة بـ«إثنوغرافيا الكلام»^(٣).

إن ما يميز كتاب (هادي نهر) كشفه عن استيعاب للمصطلح والمفهوم، وإلمام بالكتابات التي تمثل البداية الأولى للسانيات الاجتماعية بفرعها الأوربي والأمريكي، يقول في هذا الصدد: «وقد اجتهد علماء اللغة من أمثال: سوسير، ومايه، وفندريس، وفيرث، وهاليداي، ومالينوفسكي، ويسبريسن، وفلمور، وفيربواس، وهاريس،

(١) الإثنوميثودولوجيا - ملاحظات حول التحليل الاجتماعي للغة: ١٥٧.

(٢) ينظر: علم اللغة الاجتماعي عند العرب، هامش الصفحة: ٢٣.

(٣) ينظر: الإثنوميثودولوجيا - ملاحظات حول التحليل الاجتماعي للغة: ١٥٤.

وكاردنر، وغيرهم على إنشاء فرع جديد من فروع اللغة، أخذت أصوله تتضح وتستقر في السنوات الأخيرة، وتشغل أذهان الباحثين وتفهم تفكيرهم بالدراسة والبحث، أطلق على هذا الفرع (علم اللغة الاجتماعي) Sociolinguistics^(١)، ولعل لائحة المصادر والمراجع المتنوعة تكشف سعة اطلاع الباحث على المدرستين، وعلى الأعمال الأولى المؤسسة لللسانيات الاجتماعية في أمريكا، وما قد يشد الأنظار هو أن الباحث أورد كل الدراسات والترجمات العربية التي يمكن اعتبارها قد تناولت العلاقة بين اللغة والمجتمع، وعدت مؤسسة لهذا الاتجاه، ولم يورد ضمنها ترجمة (محمود عياد) لكتاب (هدسون)، أو طبعته الإنجليزية، مما يقطع الشك باليقين والحقيقة بالتخمين في أن استعماله أتى من خلال اطلاعه على مقال (محمد حافظ دياب).

بالنظر إلى ما سبق إيرادها يمكن التأكيد على أن تعرف العرب اللسانيات الاجتماعية في صورتها الأولى لم يأت عن طريق الترجمة، كما قد توهمنا بعض البحوث والدراسات التي جعلت من ترجمة كتاب (هدسون) فتحا للتعرف على المصطلح وإدراكا للمفهوم، بل إنه نتيجة فعلية لانفتاح الدارسين العرب من اللغويين وذوي التخصصات الاجتماعية أو ما يتصل بها على الدراسات اللغوية والاجتماعية الأمريكية، لذلك يمكن اعتبار فترة الثمانينيات فترة التعرف والاستيعاب الأولى للنظرية اللسانية الاجتماعية على ما تبدو به مع دراسة (هادي نهر)، فيما تمثل سنوات التسعينيات ومطلع الألفية الثالثة تمكنا واستيعابا كلياً للنظرية اللسانية الاجتماعية، بظهور دراسات قيمة تصنف ضمن هذا الحقل.

إن هذه المرحلة ومن خلال قراءة في مجموع متونها يمكن أن توزع إلى اتجاهين أساسيين يعكسان استيعاباً نظرياً، وتطويعاً عملياً تطبيقياً لمقاربة القضايا والإشكالات المتصلة باللغة العربية من جهة، وبالبحث اللغوي الحديث من جهة ثانية، أما الاتجاه النظري فيحاول التعريف بالنظرية اللسانية الاجتماعية وقضاياها وموضوعاتها لدى الباحث العربي والمهتم بالشأن اللغوي، وقد مثل هذا الاتجاه مجموعة من الدراسات القيمة لثلة من الباحثين العرب نذكر منها: «علم اللغة الاجتماعي: مدخل» للباحث (كمال محمد بشر) ١٩٩٢، وكتاب (صبري إبراهيم السيد) «علم اللغة الاجتماعي: مفهومه وقضاياها» ١٩٩٥، و«علم الاجتماع اللغوي» لـ(عبد الفتاح عفيفي) ١٩٩٥،

(١) علم اللغة الاجتماعي عند العرب: ٢٣ - ٢٤.

و«علم الاجتماع اللغوي» لـ(السيد علي شتا) ١٩٩٦، وكتاب «علم اللغة الاجتماعية» لـ(محمد حسن عبد العزيز) ٢٠٠٩.

أما الاتجاه التطبيقي فهو اتجاه استلهم النظرية الاجتماعية واستوعبها منهجا ومفهوما، وطوعها في مقارنة القضايا اللغوية الاجتماعية، وقد مثل بعدد من الدراسات القيمة منها: «التعدد اللغوي انعكاساته على النسيج الاجتماعي» (محمد الأوراعي) ٢٠٠٢، «العرب والانتحار اللغوي» (عبد السلام المسدي) ٢٠١١، «الشباب ولغة العصر، دراسة لسانية اجتماعية» (عبد المنعم جدامي) ٢٠١٢، «الازدواجية اللغوية في العربية ومقارباتها» (نادر سراج) ٢٠١٣، و«السياسة اللغوية في البلاد العربية» (عبد القادر الفاسي الفهري) ٢٠١٣، كما أغني هذا الاتجاه بجملته من المقالات المنشورة في دوريات ومجلات محكمة، وعقدت له ندوات ومؤتمرات ومحاضرات، كما أن الجامعات العربية فتحت أبوابها لهذا التخصص العلمي، فكانت ثمرته عددا مهما من البحوث والدراسات والأطاريح.

إلا أنه وفي تقييم للاتجاهين النظري والتطبيقي نجد هناك تفاوتاً من حيث الكم والنوع، مما يجعل الحصيلة تختلف بينهما، يرى في هذا الصدد الباحث (حسن كزار) من خلال دراسته المقارنة للمنجز اللساني الاجتماعي العربي، أن الحصيلة فيما يخص «الكتابات النظرية الشمولية في اللسانيات الاجتماعية قليلة جداً مقارنة بالكتابات الغربية في هذا الفرع أولاً، وبالكتابات العربية في اللسانيات العامة وفروعها ثانياً، وهذا يعني أن الدراسات العربية أهملت بعض فروع اللسانيات، ولم تسع إلى تغطية الإطار النظري لتلك الفروع، مع الأهمية الفائقة التي يحظى بها الجانب النظري في التعريف بالعلم (...). إن هذه الحصيلة العربية الفقيرة لا يمكن أن تُفسر إلا بتردد الباحثين العرب إزاء هذا الحقل اللساني الجديد، على الرغم من أهميته في دراسة العربية ومعالجة مشكلاتها الذي يُمثل أولى وظائف اللسانيات التي ينبغي أن تقدمها للواقع اللغوي العربي»^(١)، في المقابل نجد أن هناك تراكماً نوعياً في المستوى التطبيقي، يتعزز يوماً بعدد مهم من الدراسات والأبحاث التي تتناول موضوعات وقضايا تخص اللغة العربية، وما يتصل بها من لغات ولهجات.

الأمر الأخير الذي يجب الإشارة إليه فيما يتعلق بالسؤال عن إمكانية الحديث

(١) اللسانيات في الدراسات العربية الحديثة التلقي والتمثيلات: ١٥٩.

عن لسانيات اجتماعية عربية مستقلة تعكس خصوصية التفكير اللغوي العربي، سيكون جوابه أنه لا توجد معرفة متحيزة أو خاصة بأمة بعينها، بل إن الأمم شركاء في كل منجز علمي ومعرفي، وبذلك فإن الدرس اللغوي العربي ليس خارج المشاركة والمساهمة في المنظور العلمي الإنساني حول طبيعة العلاقة بين اللغة والمجتمع، فله هذه الإمكانية المشاركة، ما دام هناك دراسات وبحوث عربية تأصيلية للسانيات الاجتماعية تؤكد جذور هذا الفرع من اللسانيات في الدرس اللغوي العربي القديم.

إلا أن الإشكال الذي يفرض نفسه على كل باحث في اللسانيات الاجتماعية عربياً هو: هل اللسانيون العرب المعاصرون لهم القدرة على الخروج من هيمنة النظرية اللغوية الغربية ومفاهيمها ومناهجها، إلى بناء نظرية لسانية عربية، يكون فرعها المتصل باللسانيات الاجتماعية يبرز استقلالية وتمكناً، لكن وللحقيقة ما تزال أغلب الدراسات العربية في هذا الفرع لا تخرج عن تطبيق للمنهج اللساني الاجتماعي بصورته الغربية على ظواهر لغوية اجتماعية في البيئة العربية، غير أن هذا لا ينفي السعي والمحاولة لإبراز الخصوصية في بعض المجالات والقضايا من هذا الفرع، إلا أنها تحتاج إلى جهود أكبر، ولاستيعاب أكثر لهذه القضية، وفهم أوسع لها، لذلك يمكننا تناول بعض النماذج البحثية العربية لإبراز جوانب من القضايا والاشكالات التي تثيرها، ورسم صورة أولية حول مجال لساني من مجالات اللسانيات العربية، وهو حقل اللسانيات الاجتماعية.

٢- اللسانيات الاجتماعية العربية: نماذج وقضايا

مما لا شك فيه أن المنجز البحثي اللساني الاجتماعي لا يقل عدداً ونوعاً من حيث البحوث والدراسات المنشورة حول قضايا وموضوعات لسانية ذات طبيعة اجتماعية، سلك فيها الباحثون العرب طرائق بحثية واتجاهات لسانية اجتماعية أوروبية وأمريكية، وتركزت انشغالاتهم على موضوعات وقضايا بعينها، لا تكاد تخطئها عين باحث من مثل: السياسة اللغوية، والتخطيط اللغوي، والهندسة اللغوية، والأمن اللغوي، والتناوب الشفري والازدواجية اللغوية، والثنائية اللغوية، والتعدد اللغوي، إلخ، كما نجد أسماء لسانية عربية وازنة جعلت هذا الحقل مجالها البحثي المفضل، بل إن بعضها الذي بدأ وصفيًا أو وظيفيًا أو توليديًا؛ انتهى إلى أن يكون باحثًا متخصصًا في اللسانيات

الاجتماعية، من حيث تركّز أغلب دراساته المتأخرة في هذا الحقل اللساني بعينه، كما هو الشأن بنسبة لـ(عبد القادر الفاسي الفهري)، ولتقريب الصورة أكثر سنأخذ نموذجين من اللسانيين العرب المشتغلين بقضايا وموضوعات اللسانيات الاجتماعية وهما: (محمد الأوراعي) و(عبد القادر الفاسي الفهري)، في قضيتين لسانيتين اجتماعيتين هما: التعدد اللغوي والسياسة اللغوية.

٢-١- التعدد اللغوي عند محمد الأوراعي

إن دراسة (الأوراعي) المعنونة بـ: «التعدد اللغوي انعكاساته على النسيج الاجتماعي»^(١) ركزت على قضية أساسية من جملة القضايا اللسانية الاجتماعية، وهي قضية «التعدد اللغوي» وآثاره على البنية الاجتماعية، كما حددت مجال بحثها في البيئة اللغوية للمغرب، مع تأكيد (الأوراعي) على البعد المتعدد لمقاربتة اللسانية، يقول في هذا الصدد: «التناول اللساني للغة يمكن أن يقع على أكثر من وجه، وأن يتشكل في مظاهر متعددة، وذلك تبعاً لمنطلق الدراسة والهدف المتوخى منها، إذ يمكن حصر المعالجة اللسانية للغة، باعتبارها نسقاً رمزياً، في تحليل بنيتها وصفاً وتفسيراً، وهي مستقلة تمام الاستقلال عن الناطقين بها، وقد يقع التركيز من جهة ثانية، على وظيفة اللغة التواصلية إذا استشكل البحث دور المتكلم في تحديد البنية النمطية للغة المتواصل بها في عشيرة لغوية معينة، بجانب ذلك يمكن أن توجه الدراسة اللغوية إلى شبكة الروابط التي تجمع اللغات والمجتمعات، إذا انصبّت هذه الدراسة على ضروب التأثيرات المتبادلة بين اللغة، بصفاتها مؤسسة ثقافية، وبين شتى البنيات الاجتماعية، وبهذا المنحى الأخير، دون السابقين، يُعنى هذا البحث وقد استشكل نصيب التعدد اللغوي ضمن العوامل الفاعلة للتنمية أو الكافة عن إطلاقها في المغرب ونحوه من البلدان المماثلة»^(٢).

إن البعد التكاملي والتعدد حاضراً بقوة من خلال مادة الكتاب، إلا أن ذلك لا ينفي عن هذه الدراسة تصنيفها ضمن الدراسات اللسانية الاجتماعية: منهجاً، ومفهوماً، وموضوعاً، فالكتاب دراسة للوضع السوسiolساني المغربي بكل أبعاده الثقافية

(١) صدرت الدراسة سنة ٢٠٠٢، ضمن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس بالرباط، ضمن سلسلة بحوث ودراسات رقم: ٣٦، عن مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء، في حوالي ١٩١ صفحة.

(٢) التعدد اللغوي انعكاساته على النسيج الاجتماعي: ٩.

والتاريخية والاجتماعية، مع التركيز على أثر هذا الوضع على اللحمة الاجتماعية للمغرب، من تهديد افتراضي مدخله اختيار سياسة لغوية تركز على التعددية، والهدف من طرف الباحث ضرب اللغة العربية، لذا يعتبر الباحث خيار التفرد اللغوي المنفتح، الخيار الأمثل للحفاظ على التماسك الاجتماعي، مع إقراره بأن التعدد والتنوع ميزة مجتمعية للمغرب، لكن يجب تديرها بما يحفظ للغة الرسمية الأولى اللغة العربية مكانتها، ويبقى على الوظائف التواصلية القبلية للهجات الأمازيغية، مبزرا الأهداف والمخططات التي تحاك من طرف الفرنكوفونية بحمولتها الثقافية والعقدية، وطموحاتها الاستعمارية، من خلال تيار بربري موال وخادم لهذه الأجندة، وما الأمازيغية ضمن هذا المخطط إلا وسيلة لضرب العربية، مع توسيع لدائرة هيمنة اللغة الفرنسية، على حساب المكونات اللغوية الوطنية المغربية.

استكمالا للعدة المنهجية والمفاهيمية اللسانية الاجتماعية ضمن الباحث كتابه مسردا مفاهيميا نظريا يشتمل على جملة من المصطلحات اللسانية الاجتماعية: التعدد اللغوي، التفرد اللغوي، الازدواجية اللغوية، الثنائية اللغوية، الصراع اللغوي، التفرع اللغوي، لغة السلطة، اللغة، اللهجة، العامية، إلخ، التي استعملها في عدته التحليلية، لقراءته للوضع السوسiolساني للمغرب، وللحلول التي يراها مناسبة للحفاظ على تماسكه الاجتماعي، كما أن عناوين فصول كتابه هي الأخرى تعكس هذا المنزع اللساني الاجتماعي لدراسته، لذا فقد جاءت فصول الكتاب على الشكل الآتي:

الفصل الأول: تشابك أحوال اللغات بأطوار المجتمعات.

الفصل الثاني: الوضعية اللغوية بالمغرب.

الفصل الثالث: التفرد اللغوي المنفتح.

مصحوبة بخاتمة ضمنها الباحث مجموعة من الحقائق فيما يخص طبيعة العلاقة التي جمعت ساكنة شمال إفريقيا مع العناصر الأجنبية على مدار التاريخ، والتي قامت على قاعدتين أساسيتين هما: قاعدة اقتصادية، وقاعدة دينية، لذا جاءت ردت فعلها متبينة فيما يخص كل عنصر من هذه العناصر الأجنبية، وقاعدته التي يقوم عليها، لأن النتائج التي انتهى إليها هذا التفاعل كانت فيها الغلبة للقاعدة الدينية، التي نتج عنها تعايش وانسجام خلقه الإسلام على أساس عقدي ولغوي، استمر لقرون، لكنه تصدع

بفعل الاستعمار الحديث، فتولد عنه تفكك وصراع اجتماعي، عن طريق افتعال صراع لغوي بين العربية والأمازيغية، بحيث أن نتيجته تصب في صالح الفرنسية.

إن الباحث في كتابه يؤكد على مخاطر إساءة تدبير التعدد أو التنوع اللغوي لصالح الأجنبي ولغته، وهو ما يهدد بتفكيك البنية الاجتماعية، وتمزيق نسيجها المجتمعي، والحل في منظوره هو اعتماد التفرد اللغوي لصالح العربية، فيما أن باقي المكونات اللغوية الوطنية تلعب أدوارها المناطقية القبلية، إذن فإن مفهوم «التعدد اللغوي» ولو حقه مثلت أداة مفاهيمية لتحليل الوضع اللغوي في المغرب، بفهم الأطر المتحركة فيه، والفاعلين المؤثرين، مع تحديد النتائج الآنية والعواقب المستقبلية على النسيج الاجتماعي.

٢-٢- السياسة اللغوية عند عبد القادر الفاسي الفهري

اتجه الباحث (عبد القادر الفاسي الفهري) في دراسته التي اختار لها عنوان: «السياسة اللغوية في البلاد العربية»^(١) إلى قضية أساسية من جملة القضايا اللسانية الاجتماعية، وهي «السياسة اللغوية»، وحدد مجال دراسته في فضاء جغرافي قومي له اقتران باللسان العربي، وهو البلاد العربية، لينجز قراءته في السياسات اللغوية في هذه البلدان مجتمعة، لذا وعلى شاكلة (الأوراغي) يختار (الفهري) مقارنة تعددية، يقول في هذا الصدد: «لم يعد سرا أو اكتشافا في جل الدراسات اللسانية المجتمعية أو اللسانية-السياسية أو الجيو - إستراتيجية المنشغلة بتحديد أوضاع اللغات ومواقعها وعدد متكلميها (أو ديمغرافيتها)، وشروط انتشارها أو ضمورها وأفولها أن يتم الربط بين قوة اللغة (أو ضعفها)، وقوة الأمة (أو الجماعة التي يوحدتها اللسان)، وقوة الدولة»^(٢)، إن هذا الاختيار التعددي والتكاملي لمقاربة السياسة اللغوية في البلاد العربية، لا ينفي مطلقا عن الكتاب تصنيفه ضمن خانة الدراسات اللسانيات الاجتماعية، لأن قضية السياسة اللغوية والتخطيط والهندسة اللغوية هي موضوعات أساسية لها، إلا أن المقاربة المنفتحة التي سلكها الباحث تجعل الإلمام بقضايا وإشكالات السياسة

(١) العنوان الكامل للدراسة هو: السياسة اللغوية في البلاد العربية: بحثا عن بيئة طبيعية عادلة، ديمقراطية، وناجعة، صدرت الدارسة سنة ٢٠١٣ عن دار الكتاب الجديد المتحدة في حوالى ٣٣٢ صفحة.

(٢) السياسة اللغوية في البلاد العربية: بحثا عن طبيعة، عادلة، ديمقراطية، وناجعة: ٦.

اللغوية في البلاد العربية تتم بشكل أعمق وأدق.

إن الباحث، وعلى المعتاد في أي اختيار منهجي معين يكون ملزماً بعدة مفاهيمية تسعفه في تناوله لموضوعه، وتوصيف وتحليل الظواهر التي تصدر لها بالبحث، لذا نجده قد ضمن مسرده المفاهيمي عددا مهما من المصطلحات اللسانية الاجتماعية منها: الازدواجية اللغوية، الاتصال اللغوي، الأحادية اللغوية، التحول اللغوي، التخطيط اللغوي، التدخل اللغوي، التعددية اللغوية، التنوع اللغوي، العنف اللغوي، القرار اللغوي، موت اللغات، إلخ، كما نجده استعان بثلة من اللغويين الاجتماعيين منهم: تشارلز فيرغسون، وجوشوا فيشمان، وهادسون، وبيير باولو جيجيلولي، ولويس كالفلي، إلخ، وقد عكست عناوين فصول الكتاب هذا التوجه اللساني الاجتماعي:

الفصل الأول: أوضاع اللغة العربية وتحدياتها.

الفصل الثاني: البيئة السياسية وصنع القرار اللغوي والديموقراطي.

الفصل الثالث: العدالة اللغوية - البيئة ووسائلها.

الفصل الرابع: الثقافة والحضارة واللغة.

الفصل الخامس: اقتصاديات اللغة.

الفصل السادس: في سبيل تخطيط واستنهاض لغوي-ثقافي جديد.

فيما أجملت خاتمة الكتاب مجموعة من التوصيات المتعلقة بأهمية اللغة (العربية) بالنسبة للفرد/ المواطن والجماعة/ الشعب، وضرورة النهوض بها من خلال الحسم في سيادتها، بقرار سياسي حضاري قوي لا تردد فيه ولا رجعة؛ وطنيا وعربيا ودوليا، وذلك من خلال جملة من الخطوات والإجراءات التي تتعلق بجوهر السياسة والتخطيط اللغويين للعربية.

إن كتاب (الفاسي الفهري) قراءة للواقع اللغوي العربي، وتوصيف للوضع السوسiolساني، وجملة التحديات والإشكالات التي تعترض قيام سياسة لغوية عادلة وديموقراطية وناجعة، تستوعب التعدد اللغوي والثقافي، وتوظفه في تحقيق تنمية شاملة في البلاد العربية، إلا أن ما يؤخذ عليه أنه خصص الحيز الأكبر للحديث عن

السياسة اللغوية للمغرب دون باقي الدول العربية، ولقد كان مفهوم «السياسة اللغوية» أداة تحليلية استطاع من خلالها الباحث مقارنة الشأن والسياسة اللغويين في البلاد العربية، والبحث في عوامل الفشل والإعاقة، وعناصر القوة والنجاح، مؤكداً أنه لا يمكن إنتاج سياسة لغوية ناجحة وحكيمة دون رؤية عربية، تضمن للعربية مكانتها وسيادتها.

خاتمة:

خلصت هذه الدراسة عبر مقارنة نقدية تحليلية إلى جملة من النتائج والخلاصات التي تلخص مسار البحث وتؤكد قيمة إسهامه في حقل اللسانيات الاجتماعية العربية، لقد تبين أن انفتاح الدرس اللساني العربي الحديث على اللسانيات الغربية، وخاصة اللسانيات الاجتماعية، لم يكن محض تقليد أو ترجمة، بل جاء ثمرة مباشرة لدراسة عدد من الباحثين العرب على يد كبار أعلام اللسانيات في جامعات غربية، وفي تخصصات لسانية متنوعة، منها حقل الدراسات اللسانية الاجتماعية.

كما تكشف نتائج الدراسة عن وعي مبكر لدى اللسانيين العرب بالبعد الاجتماعي للغة، حتى قبل تعرفهم بالمنهج على اللسانيات الاجتماعية، وقد أفضى تعرفهم عليها - وإن كان في زمن متأخر عن ظهورها - إلى المساهمة في إنتاج مؤلفات ودراسات أصيلة تجاوزت المستوى الوصفي إلى مستوى التحليل النقدي، وقد ظهر هذا الوعي بشكل جلي منذ الثمانينيات، إلا أنه في عقد التسعينيات وبداية الألفية الثالثة انتقل إلى طور نوعي تمثل في صدور دراسات علمية عميقة، تناولت قضايا لغوية اجتماعية بمنهج لساني حديث.

كما تبرز الدراسة أيضاً تمايز مسارين بحثيين داخل اللسانيات الاجتماعية العربية: مسار نظري يهدف إلى التعريف بالنظرية اللسانية الاجتماعية وأهم مفاهيمها ومناهجها، ومسار تطبيقي يوظف هذه النظرية بعدتها المفاهيمية والمنهجية في دراسة الظواهر اللغوية في سياقاتها المجتمعية، مع ميل من حيث الكم والنوع لصالح الدراسات التطبيقية على حساب الدراسات النظرية، إلا أنه ورغم الصعوبات والتحديات يتضح من خلال المنجز اللساني الاجتماعي العربي، وجود إمكانيات واعدة لتأسيس مشروع لساني عربي مستقل، قادر على مضاهاة المنجز اللساني الغربي.

أما فيما يتعلق بفرضية الدراسة، فقد تأكد لدينا صحة الافتراض بأن البحث اللساني العربي الحديث لم يقتصر على دراسة النسق اللغوي بمعزل عن أنساقه المحيطة، بل وازن بين البعدين اللغوي والاجتماعي، مما أثمر الدراسات اللسانية العربية مضموناً ومنهجاً، كما تمت الإجابة عن الإشكالية المركزية للدراسة، بالتأكيد على أن النظرية اللسانية الاجتماعية الغربية تركت أثراً بينا في البحث اللساني العربي الحديث، سواء على مستوى الموضوعات المطروحة، أو على مستوى المنهج، مما أنتج بحثاً لسانياً اجتماعياً عربياً بمنجز نظري وتطبيقي أغنى المكتبة اللسانية العربية ببحوث نوعية.

أما في سياق تقييم الحصيلة البحثية، تبين أن المنجز اللساني الاجتماعي العربي، وإن كان يضم نماذج قيمة ومؤلفات رائدة إلا أنه لا يزال دون مستوى الطموح، مقارنة بنظيره الغربي، ولا سيما المدرسة الأمريكية، غير أن المسعى ما يزال قائماً لدى الباحثين العرب لصياغة لسانيات عربية حديثة، تستجيب لقضايا الواقع اللغوي والاجتماعي العربي، وتواجه تحديات، مثل انتشار اللغات الأجنبية واللهجات المحلية.

وقد أوصت الدراسة بضرورة إرساء رؤية علمية مجتمعية تجعل من البحث اللساني وسيلة للنهوض الحضاري، وذلك من خلال تمكين الباحثين من ظروف عمل ملائمة، وتجاوز دائرة التلقي والتقليد، إلى دائرة الإبداع والإنجاز، كما اقترحت التوسع في الدراسات التطبيقية الميدانية التي تُعنى بقضايا لغوية واقعية، تمس المجتمعات العربية، مع إغنائها بأبحاث ودراسات نظرية تنطلق من البيئة الاجتماعية والتنوع اللغوي العربي، وتوظيف الميراث اللغوي العربي والمعرفي في تأسيس مدرسة لسانية اجتماعية عربية صرفة، بدلا من الاقتصار على الدراسات النظرية والتطبيقية الغربية.

بذلك تمثل هذه الدراسة محاولة متواضعة للإسهام في إبراز مسار البحث اللساني الاجتماعي ضمن البحث اللساني العربي، والكشف عن إشكالياته وقضاياها، سعياً نحو بناء تقليد بحثي لساني عربي أصيل، يجمع بين توظيف التراث والانفتاح على الحداثة.

المصادر والمراجع

١. أبحاث في اللسانيات الاجتماعية، عبد المنعم جدامي، عمان: دار الكنوز المعرفة للنشرة والتوزيع، ط١، ٢٠٢٣ م.
٢. الإثنوميثودولوجيا - ملاحظات حول التحليل الاجتماعي للغة، محمد حافظ دياب، فصول، القاهرة، مجلد ٤، عدد ٣، ١ يناير ١٩٨٤ م.
٣. التعدد اللغوي انعكاساته على النسيج الاجتماعي، محمد الأوراعي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٢ م.
٤. الخصائص، ابن جني، تحقيق: محمد علي النجار، القاهرة: دار الكتب المصرية والمكتبة العلمية.
٥. السياسة اللغوية في البلاد العربية: بحثا عن طبيعة، عادلة، ديمقراطية، وناجعة، عبد القادر الفاسي الفهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠١٣ م.
٦. علم اللغة الاجتماعي عند العرب، هادي نهر، جامعة المستنصرية، بغداد، ط١، ١٩٨٨ م.
٧. اللسانيات العربية الحديثة: دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية، مصطفى غلفان، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط٢، ٢٠٢٥ م.
٨. اللسانيات في الدراسات العربية الحديثة التلقي والتمثيلات، حسن كزار، دار الرافين للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠١٨ م.
٩. اللغة والمجتمع: رأي ومنهج، محمود السعران، دار المعارف، الإسكندرية، ط٢، ١٩٦٣ م.
١٠. اللغة والمجتمع، عبد الواحد وافي، عكاظ للنشر والتوزيع، الرياض، ط٤، ١٩٨٣ م.
١١. محاضرات في علم اللسان العام، فردناند دي سوسير، ترجمة: عبد القادر قنيني وأحمد حبيبي، الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ١٩٨٧ م.

12. Sociolinguistique, William Labov, Éd. de Minuit, Paris, 1976.
13. Cours de linguistique générale, Ferdinand de Saussure, Éd. par Charles Bally et Albert Sechehaye avec la collaboration de Albert Riedlinger, Payot, Paris, 1971. 'Ilm al-lughah al-ijtimā'ī 'inda al-'Arab. Hādī Nahr. Baghdād: Jāmi'at al-Mustanşirīyah, Ṭ 1, 1988 M.

References

1. Abḥāth fī al-lisānīyāt al-ijtimā'īyah. 'Abd al-Mun'im Jaddāmī. 'Ammān: Dār al-Kunūz al-Ma'rifah lil-Nashrah wa-al-Tawzī', Ṭ 1, 2023 M.
2. Cours de linguistique générale, Ferdinand de Saussure, Éd. par Charles Bally et Albert Sechehaye avec la collaboration de Albert Riedlinger, Payot, Paris, 1971.
3. 'Ilm al-lughah al-ijtimā'ī 'inda al-'Arab. Hādī Nahr. Baghdād: Jāmi'at al-Mustanşirīyah, Ṭ 1, 1988 M.
4. al-Ithnūmīthūdūlūjiyā - mulāḥazāt ḥawla al-taḥlīl al-ijtimā'ī lil-lughah. Muḥammad Ḥāfiẓ Diyāb. Fuṣūl. al-Qāhirah. Mujallad 4, 'Adad 3, 1 Yanāyir 1984 M.
5. al-Khaṣā'ish. Ibn Jinnī. Taḥqīq: Muḥammad 'Alī al-Najjār. al-Qāhirah: Dār al-Kutub al-Miṣrīyah wa-al-Maktabah al-'Ilmīyah.
6. al-Lisānīyāt al-'Arabīyah al-ḥadīthah: dirāsah naqdīyah fī al-maṣādir wa-al-usus al-naẓarīyah wa-al-manhajīyah. Muṣṭafā Ghalfān. Bayrūt: Dār al-Kitāb al-Jadīd, Ṭ 2, 2025 M.
7. al-Lisānīyāt fī al-dirāsāt al-'Arabīyah al-ḥadīthah al-talaqqī wa-al-tamaththulāt. Ḥasan Gazzār. Bayrūt: Dār al-Rāfiḍayn lil-Ṭibā'ah wa-al-Nashr wa-al-Tawzī', Ṭ 1, 2018 M.
8. al-Lughah wa-al-mujtama'. 'Abd al-Wāḥid Wāfi. al-Riyāḍ:

‘Ukāẓ lil-Nashr wa-al-Tawzī’, Ṭ 4, 1983 M.

9. al-Lughah wa-al-mujtama‘: ra’y wa-manhaj. Maḥmūd al-Sa‘rān. al-Iskandarīyah: Dār al-Ma‘ārif, Ṭ 2, 1963 M.
10. Muḥāḍarāt fī ‘ilm al-lisān al-‘āmm. Firdinānd Dī Sūsīr. Tarjamah: ‘Abd al-Qādir Qīnīnī wa-Aḥmad Ḥabībī. al-Dār al-Bayḍā’: Ifrīqiyā al-Sharq, 1987 M.
11. al-Siyāsah al-lughawīyah fī al-bilād al-‘Arabīyah: baḥthan ‘an ṭabī‘ah, ‘ādilah, dīmuqrāṭīyah, wa-nāji‘ah. ‘Abd al-Qādir al-Fāsī al-Fīhrī. Bayrūt: Dār al-Kitāb al-Jadīd al-Muttaḥidah, Ṭ 1, 2013 M.
12. Sociolinguistique, William Labov, Éd. de Minuit, Paris, 1976.
13. al-Ta‘addud al-lughawī in‘ikāsātuhu ‘alā al-nasīj al-ijtimā‘ī. Muḥammad al-Awrāghī. al-Dār al-Bayḍā’: Maṭba‘at al-Najāh al-Jadīdah, Ṭ 1, 2002 M.

